وثائق حزبية
من تاريخ البعث

إستراتيجية العمل القومي بعد أمّ المعارك

من أوراق المؤتمر القومي 12
لحزب البعث العربي الإشتراكي
بغداد - العراق 1992

منشورات



1996

المتغيرات الجديدة في العالم المعاصر وانعكاساتها على الواقع القومي والدولي

أولا: المتغيرات الجديدة في العالم المعاصر

كان الانهيار السريع للاتحاد السوفيتي، الحدث الأكبر، الذي شهده العالم المعاصر، فهو فضلاً، عن الخلل الذي أوقعه في موازين القوى العالمية، والضرر الذي ألحقه ببلدان العالم الثالث، وفي الوطن العربي بوجه خاص.. فإنه يشكل تحولاً يمس جوهر الأفكار والسياسات التي امتد تأثيرها على العالم، بأشكال ونسب مختلفة طيلة قرن من الزمن على الأقل.

وهو تحول يكشف عن أزمة جوهرية عميقة في التجارب العالمية المعاصرة، ويهدد أسس البناء السياسي والاجتماعي والفكري، التي قامت عليها تلك الأنظمة التي حكمت باسم الاشتراكية، والتقدم، وراهنت على التاريخ ومنطق العصر، وعلى الزوال السريع للنظام الرأسمالي.. أو الأنظمة الرأسمالية ذاتها. التي مهما حاولت استثمار نتائجه لصالح التغطية على عورات النظام الرأسمالي، فإنها سوف تجد نفسها، مهددة بالخلل ذاته الذي أودى بالاتحاد السوفيتي، وان كان لأسباب أخرى بغض النظر عن الشكل الذي سوف يتخذه انهيارها.

لذلك فان استيعاب الأبعاد الفكرية والسياسية والاجتماعية للتحولات الراهنة في العالم، يشكل هاجساً لبلدان العالم الثالث، بوجه عام، وللبلدان العربية بوجه خاص، ولحركة النضال في وطننا العربي، على نحو آخر.

وفي الرسالة التي وجهها الرفيق القائد، نائب الأمين العام صدام حسين إلى الشعب العربي، بمناسبة عيد المولد النبوي في ١٠/ ١٢/ ١٩٨٩، كشف عن أبعاد الأزمة التي يعيشها العالم العربي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي، وعن اصل الخلل في بنية التجارب العلمية المعاصرة.

فإذا كانت الأبعاد الأيديولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للأزمة الراهنة قد أصبحت مكشوفة، داخل تلك التجارب وخارجها، فإن «البعد الحضاري» هو الذي غاب عن أذهان المهتمين بدراسة التحولات المصيرية في الاتحاد السوفيتي وفي بقية الدول الاشتراكية، لأن إدراك هذا البعد الشامل والعميق للأزمة الراهنة يتطلب تحرراً من اسر الإطار الحضاري للغرب، الذي ظل يبسط ظله، ويهيمن على البشرية وقدراتها عدة قرون، ومثل هذا التحرر لا يكتمل إلا بانبعاث نظرة حضارية وأصيلة إلى العالم، والى العصر الجديد الذي دخل فيه التطور العام للبشرية..

لذلك بقي الغرب غافلا عن إدراك جوهر أزمته، وكان من الطبيعي ان تتبلور هذه النظرة الحضارية الجديدة المستقلة والمستقبلية، داخل المجتمعات التي عانت اكثر من سياسات الغرب الاستعمارية والعنصرية، أي تتجمع الآلام الكبيرة للعالم المعاصر.. وبخاصة في نضال امتنا العربية، ومن داخل نهضتها الحديثة، ومن خلال «البعث»: وقد كان الرفيق نائب الأمين العام، يستلهم في رسالته، التي لخص فيها هذه النظرة، روح الأمة العربية مجسدة في ذكرى مولد الرسول العربي، عندما نفذت بصيرته التاريخية إلى الجوهر الحضاري لأزمة الغرب، وحددها بأنها أزمة حضارية، وانها بدأت بالتركيز على النظام الشيوعي الذي نظر إلى الحياة نظرة مادية تتجاهل الروح، وقادته صيغه الجامدة- في الفكر وفي الممارسة التطبيقية على حد سواء- وكذلك ممارسته لدور الوصاية الدائمة على الشعب، بل على روح الشعب، بالإضافة إلى غياب النظرة الإنسانية العميقة إلى الإنسان.. قادته هذه الأخطاء الكبرى إلى محكمة التاريخ، بيد ان محكمة التاريخ ما زالت تنتظر المتهم الأكبر، وهو النظام الرأسمالي، الذي شوه، بدوره، المعاني الإنسانية للحرية وللتقدم ولحقوق الإنسان، بقيامه على ابشع صور الاستغلال والاستعباد الطبقية، والتنكر لحقوق الشعوب، والعدوان عليها..

فالمنهج الحضاري في التحليل، الذي انطلق منه الرفيق القائد صدام حسين، قد كشف عن حقيقة الأزمة، وعن جوهر الخلل في بنية التجارب الاشتراكية والرأسمالية، المعاصرة.. فهي، باتجاهها نحو تكوين الإنسان والمجتمعات وفق نظرة أحادية تتجاهل الأبعاد الغنية للوجود الإنساني، والأبعاد الحضارية لوجود الأمم، قد تورطت في التركيز على القيم المادية والعوامل الاقتصادية والاجتماعية، على حساب العوامل النفسية والخلقية والروحية.. الأمر الذي نجمت عنه أنواع أخرى من الخلل في معادلات الوجود الحضاري والتكوين الإنساني للفرد والمجتمع، كالخلل في العلاقة بين النظرية والواقع، وبين التطور الاجتماعي والتطور الحضاري، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين التقدم التكنولوجي والمفهوم الإنساني للتقدم، وسيطرة معايير النجاح والمردود المادي، على المقاييس المبدئية والخلقية.. وانعكاس ذلك كله سلباً على علاقة الدولة، بالثورة، والطبقة بالأمة، والحزب بالجماهير، وعلى العلاقات الدولية، فضمرت علاقات العدالة، وسادت علاقات تستند إلى الحسابات النفعية الضيقة والمباشرة..

تلك هي الحقائق التي يكشفها المنهج الحضاري الذي اعتمده الرفيق القائد صدام حسين، والذي أكد على ضرورته الرفيق القائد المؤسس ميشيل عفلق، كسمة مميزة للفكر البعثي.

إن الخلل الذي ظنَّ (غور باتشوف) انه يقتصر على هيكل النظام وآلياته ومؤسساته، تبين انه خلل قائم في أسس البناء، لان التركيز على النواحي المادية قد أوصل التجارب المعاصرة إلى القوة، والى السيطرة المادية، ولكن على حساب تكوين الانسان، فالعنصر المفقود في تجربته الاشتراكية، على امتداد اكثر من سبعين عاماً، كان هو العنصر الذي اكتشفه المنهج الحضاري للبعث منذ نشأته، وهو افتقاد النظام الشيوعي للتكامل المادي والروحي، الاجتماعي والنفسي، ولوحدة العلاقة بين القومي والإنساني.. أي لهذا التكامل الذي يضمن للعمل السياسي ان يكون مبدئياً وأخلاقياً وحضارياً.

لذلك فان التحولات الراهنة، في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين، تطرح الحاجة إلى النموذج الحضاري الجديد، الذي أشار إليه الرفيق القائد صدام حسين، عندما ينتهي من تحليله للأزمة الحضارية للأنظمة الاشتراكية والرأسمالية، إلى القول: «المطلوب ان يحقق العرب نموذجهم الإنساني القومي، وان تتحقق في هذا النموذج شروط التكامل بين روح رسالتهم القومية وبين روح العصر».

وإذا كان حزبنا قد تميز، من بين الحركات السياسية خلال ما يقرب من نصف قرن، بأنه قد قدم ترجمة فكرية ونضالية لهذا المطلب الحضاري للمرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة.. فان الترجمة السياسية لم تكن بعيدة عن إنجازات البعث، وبخاصة بعد قيام التجربة التي قادها الرفيق القائد صدام حسين في العراق.

فالمواقف المبدئية، والتخطيط الستراتيجي، قد قاما، في تجربة البعث، على قيم تؤكد على الاستقلالية، وعلى عدم الانحياز، والتمسك بوحدة المصالح الوطنية والقومية، ضمن منظور حضاري إنساني عام، ونظرة متوازنة حية للعلاقات الدولية.

وبالرغم من ذلك، فإن التحولات الراهنة في العلاقات الدولية توجب المزيد من التأكيد على تلك الأسس، مع اخذ المستجدات المتلاحقة بعين الاعتبار، لأنها تصوغ اليوم صورة لعالمنا، وتفتح آفاقا جديدة لتطورات هامة لها انعكاساتها الخطيرة على بلدان العالم الثالث، وعلى نضال امتنا، وعى موقفها في العالم المعاصر.

فالأنظمة الرأسمالية، اعتبرت سقوط الاتحاد السوفيتي بمثابة تكريس لنهجها الفكري والعملي، أفسح المجال لها، لكي تملي، بالقوة، هذا النهج الرأسمالي المشبع بروح صهيونية، على بلدان العالم الثالث. وقد جاء العدوان الأثيم، الذي قادته الولايات المتحدة لتدمير العراق، وتعطيل الدور الفاعل للقومية العربية، وعودة الأمة إلى دورها الرسالي المشارك في تجديد الحضارة الإنسانية.. جاء ذلك تصديقا لتحليل البعث

ثانياً: العلاقات الدولية وانعكاساتها على الواقع القومي:

حملت السنوات القليلة الماضية رياح التغيير في العلاقات الدولية، وأوصلتها إلى كل مكان في العالم. ولم يكن هذا التغيير حدثاً عادياً متوقعاً، كما انه لم يكن من صنع الصدفة، بالرغم من ان الصدفة التاريخية تلعب في التحولات الكبرى دوراً يقترب، أحياناً، من حالة الضرورة. فصعود (غور باتشوف) إلى قمة السلطة في الحزب والدولة في الاتحاد السوفيتي، حاملاً أفكاراً وطروحات جديدة، تستند إلى تصور إصلاحي مستقبلي، قد كان عاملا أساسياً في تحول الولايات المتحدة عن وصف الاتحاد السوفيتي - على لسان رئيسها - بأنه (إمبراطورية الشر) في صيف عام ١٩٨٣، إلى وصف اللقاء الذي تم في قمة جنيف في أواخر عام ١٩٨٥، بأنه قد تم في (جو عائلي).. فالإصلاح لدى غور باتشوف، قد تحول إلى مجرد تقليد للنظام الاقتصادي الرأسمالي، الذي يعكس الوجه الآخر للأزمة، ثم ان الاتجاه الإصلاحي قد تجاهل عمق الأزمة التي تتخبط فيها الأنظمة الشيوعية والرأسمالية، على السواء، وانها ليست مجرد أزمة اقتصادية، بل ان الاقتصاد فيها هو نتيجة لخلل شامل اكبر، ومادام الطرفان يتعاملان مع الإنسان والمجتمعات، دونما اهتمام بشخصيتها الإنسانية.. لذلك فان المشروع الإصلاحي الذي بادر إليه الاتحاد السوفيتي، كان مقدمة لإنهائه.

إن حالة الانعطاف الكبرى في العلاقات الدولية التي قادت إليها الأوضاع الداخلية، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم سياسية، في كل من المجتمعين الأمريكي والسوفيتي، وكانت فيها المبادرة للنظام الذي يستشعر الأزمة اكثر من غيره، هي اتجاه نحو تعميم الأزمة على العالم، تحت غطاء أمريكي جديد، يحمل اسم «النظام الدولي الجديد»..

فهو، إذن، لم يكن اتجاها تمليه الضرورة. ومعطيات العصر النووي، كما زعم غورباتشوف، بل كان معالجة للأزمة داخل منطق الأزمة، وليس بالخروج منه.. فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. فالهرب نحو النموذج الغربي الرأسمالي، كان بمثابة العملية الجراحية التي عالجت المرض بقتل المريض..

صحيح ان العالم يحتاج إلى تفكير سياسي جديد، يلبي حاجة المرحلة التاريخية للانتقال بالسياسة الدولية من هيمنة قانون الصراع والقوة إلى غلبة قانون الحوار والقيم الحضارية.. ولكن فاقد الشيء لا يعطيه.. فالغرب، بشقيه الشيوعي والرأسمالي، قد مارس سياسة القوة المادية المستندة إلى فلسفة مادية.

وبالرغم من ان الدعوة إلى الحوار الذي يحقق المكاشفة الكاملة، والى التفكير الجديد واعادة البناء (البرسترويكا) قد لقيت، في البدء، استجابة في العالمين الاشتراكي والرأسمالي، تعزز صحة التوجه نحو تجاوز منطق الصراع الأيديولوجي والسياسي، الذي يحمل التهديد المتبادل، وينعكس على مستوى العالم، إلا ان الذي انتهت إليه تلك المحاولة «الإصلاحية» البائسة، كان فوق حسابات تلك الأنظمة، لأنها لم تكن تتوقع انهياراً للاتحاد السوفيتي بهذه السرعة، ولأن منطق القوة، عاد يحرك، بعدوانية اشد، النظام الأمريكي، الذي بات يتفرد بمصير العالم.

فهي، إذن، مرحلة جديدة، في تطور العلاقات الدولية، لا بد ان يكون لها انعكاساتها على العالم الثالث، وعلى الأمة العربية بوجه خاص.. وقد كان انعكاساً رهيباً عندما تكتلت ثلاثون دولة بزعامة الولايات المتحدة، وتحت غطاء الأمم المتحدة، لمعاقبة الإرادة المستقلة للعراق الناهض.

إن الطبيعة المعقدة لعصرنا كانت توحي بهذا التطور باتجاه التعددية الأيديولوجية، والحوار والتعايش بين الأنظمة المختلفة اجتماعياً وحضارياً، ولكن العالم فوجئ بمرأى المشهد الدرامي (المأساوي) السوفيتي، وبالنتائج السريعة للتفرد الأمريكي. الذي استعاد مقولات العصور الاستعمارية تحت شعار النظام الدولي الجديد.. لذلك، بدلاً من ان يتقدم العالم نحو المزيد من استخلاص الدروس والعبر التي توهم غورباتشوف بأن مشروعه الانتحاري، سوف يكون عاملا مساعداً في تكريس ريادته لها، راح العالم يتقدم بعكس هذا الاتجاه. فبدلاً من الخروج من دائرة الانقسام والقوالب ومنطق القوة

المجردة من إطارها الحضاري، أي من دائرة الصراع، ويتجه نحو علاقات جديدة بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ونحو تصور جديد للعالم اكثر استعداداً للحوار، واحتراماً لقيم العصر، وقع العالم في القبضة الرأسمالية، التي يؤكد نظامها الأمريكي، كل يوم، بأنه ماض بعقلية الاستخفاف نفسها، التي كانت وراء غرق النظام الشيوعي في أزمته، وزوال الاتحاد السوفيتي.

ومنذ عام ١٩٧٥، كان الرفيق القائد صدام حسين يستقرئ اتجاهات التطور الذي يسبر فيه العالم.. اذ يقول: «في تصورنا ان السنوات العشرين القادمة سوف تشهد مراكز قوى ومراكز استقطاب جديدة تؤثر في السياسة الدولية تأثيراً قيادياً». وهو يؤكد على ضرورة مشاركة العرب في صياغة هذا الواقع الدولي الجديد، فلأنه سوف ينعكس على نضالنا الوحدوي. وكما يؤكد الرفيف القائد على أن الوفاق الدولي هو الطريق الصحيح، وان الوفاق الصحيح هو الذي يشكل حالة عامة في السياسة الدولية، أي حالة وفاق وتفاهم تنعكس على العالم ككل: وعلى العلاقات الدولية عامة. (حديث عام ١٩٨٣).

وهو في حديثه في ١٩٨٥/ ٧/ ٢٠، يركز على العامل الحاسم الذي يقرر، في النهاية، موقع أي بلد وأمة في العلاقات والسياسة الدولية بالرغم من انعكاس العوامل الأخرى على الساحتين الوطنية والقومية، وهو عامل إرادة الشعوب والأمم.

وفي خطاب الرفيق القائد صدام حسين في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر «قمة بغداد»، في ١٩٩٠/ ٥/ ٢٨، تحليل لنتائج «انزياح كابوس التقسيم المقيت للعالم، وذلك الاصطراع الذي اضعف تبلور موقف إنساني موحد، وكان عقبة في وجه تبلور مواقف وطنية وقومية موحدة ومرتبطة بخصوصياتها».

فالآثار السلبية التي انعكست، من تلك المرحلة، على ساحة الوطن العربي والمجتمع العربي، قد ألحقت ضرراً بليغاً بأمننا القومي، لان جانباً سياسياً من قوى الأمة، بات موزعاً بين تأثير قطبي الصراع، ومصالحها وإستراتيجيتها. فأصبحت صياغة سياسة واحدة تعبر عن شخصية الأمة ومصالحها واستقلاليتها، ولائقة بها وبتراثها كأمة عظيمة، تكتنفها صعوبات تتعدى مجرد الظرف الذي تخلفه حالة الاختلاف بسبب تعدد الدول والأنظمة العربية. أما الآن وبعد ان انزاح، أو كاد، عن العالم، ذلك التقسيم والاصطراع فقد أتيحت فرص صيرورة جديدة نحو تبلور أصيل، سوف تفتح أمامنا، كعرب، مجالاً أوسع لسياسة عربية موحدة، أكثر ثباتاً من ذي قبل، إن نحن أحسنا التعامل الإيجابي مع متغيرات السياسة الدولية، وأبقينا على سياسة متوازنة، أساسها مصالح الأمة ومصالح شعب أقطارنا، وفق الترابط الذي أكدنا عليه بين الوطني والقومي.

ولكن الأوضاع العربية، المعبأة باتجاه الاستسلام للقطبية الوحيدة الباقية، لم تحسن التعامل الإيجابي مع المتغيرات الجديدة. لذلك اصبح التمسك بالمبدئية في العلاقات الدولية، أي بالقيم الأساسية لتحرر الشعوب وتقدمها، ومشاركتها الحضارية في صياغة عالم جديد، مهمة تقع على كاهل القوى التي تمثل حقيقة الأمة وروح نهضتها، والتي كتب عليها، في هذه المرحلة المصيرية، ان تدفع ثمن حرصها على القيم الإنسانية في التعامل الدولي.

لقد كان الاتجاه نحو تجاوز الصراعات الأيديولوجية، في العالم- هذا الاتجاه الذي اتفق عليه النظامان الشيوعي والرأسمالي، قبل الاحتضار السوفيتي- يعني اعتراف كل من المعسكرين الدوليين بان أيديولوجيته لم تعد عاملاً مساعداً على بناء تصور سياسي جديد، يسمح بتعايش التجارب ذات الأنظمة المختلفة.. وهذا يعني ان مرحلة الوفاق الدولي سوف تتجه إلى تفريغ العالم من الشحنات الأيديولوجية التي ظل كل من النظامين الرأسمالي والاشتراكي يعبئ بها العالم، طيلة مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وإن الفلسفات العملية الأمريكية سوف تسيطر على مفهوم العلاقات الدولية، ومن هنا كانت خطورة انعكاس هذا الاتجاه على بلدان العالم الثالث وتجاربها الاستقلالية والنهضوية، وعلى برامجها السياسية الوحدوية وبرامجها الاقتصادية التنموية، وعلى شخصيتها الثقافية..

فـ«الفراغ الأيديولوجي» يضعف الوزن النوعي لمسيرتها التحررية، ولقدرتها على المشاركة الجادة في العلاقات الدولية، لأنه يفقدها شخصيتها وتعبيرها الأصيل عن ذاتها.. فالأيديولوجية القومية التحررية

مسألة جوهرية في رسم سياسات بلدان العالم الثالث، وهكذا فان الفراغ العقائدي خطر، شأنه شأن «الصراع الأيديولوجي» غير المبرر الذي حصرته الأنظمة الشيوعية والرأسمالية، طيلة ثلاثة أرباع القرن، في ثنائيتها. وهذا ما حرص البعث، ويحرص دوما على التنبه والتنبيه إليه، لأن التحصن المبدئي، من جهة، والممارسة المبدئية ذات الأفق الرحب، من جهة أخرى، هي أقوى سلاح في الدفاع عن المبادئ الإنسانية التي ينبغي ان تقوم عليها العلاقات الدولية.. وقد امتحن هذا المنطلق المبدئي امتحاناً عملياً وتاريخياً، في (أم المعارك)، عندما واجهت امتنا العدوان الثلاثيني، بسلاح الموقف المبدئي الجهادي، وانتصرت به.

فالطريق الصحيح لبناء علاقات دولية تستجيب لمصالح الشعب وتعبر عن روح العصر، هو طريق التعبير الصادق على هذه المصالح وطريق التكيف الدائم مع متغيرات العصر.

فالسياسة المبدئية والصراحة المبدئية العالية والثابتة، هي ما كان الرفيق القائد صدام حسين يؤكد دوما على ضرورة الحرص عليه في بناء علاقات دولية، وان الأبعاد الفكرية والروحية والخلقية، ينبغي ان تكون ركائز جوهرية للسياسة الدولية. وعلى هذا الأساس كان تمسك تجربة الحزب في العراق بمبادئ الاحترام المتبادل للشخصية الوطنية والقومية، وللقيم والأهداف الإنسانية والمصالح المتبادلة.. فالاستقلالية والانفتاح وعدم الانحياز، والاستناد الدائم إلى أهداف النضال العربي وقيم النهضة العربية.. هي أسس تحدد طبيعة العلاقات ومستواها فيما بين العراق والعالم.

وكانت القيادة التاريخية لهذه التجربة تؤكد دوما على أن الوزن النوعي للسياسة العربية لا يتحقق في ظل المعطيات الجديدة للعلاقات الدولية، إلا مع تضامن العرب وتوجههم نحو الوحدة، وإلا مع تقليص المسافة بين مواقف الأنظمة القائمة، وبين حاجات تطور المجتمع ومصالح الجماهير الواسعة وتطلعات الشعب. وقد أعطى منهج الحزب هذا في التعامل مع السياسة الدولية وزناً نوعياً للموقف العربي، لأن الممارسة المبدئية برهنت على أنها هي الأقرب إلى حس الشعب والى روح الأمة، وان السياسة العقلانية التي تتعامل مع الظروف من خلال منطلقات تستوعب التكامل بين الأبعاد الوطنية والقومية والعالمية، هي التي تشارك في عملية تغيير العلاقات الدولية باتجاه إنساني حضاري، وبهذه السياسة دافعت قيادة الحزب في العراق عن مصير شعبها وأمتها، ومصير الحضارة الإنسانية، في آن معاً.

وبهذا المستوى التاريخي من التعامل مع حاجة الوطن إلى النهضة ومع حاجة الأمة إلى الانبعاث، ومع حاجة العالم إلى السلام المعبر عن ضرورة حضارية، صيغت الخطط والمواقف الدولية للعراق، وكان يعتقد ان هذا المستوى الكفيل بتحويل انعكاسات التطور في العلاقات الدولية إلى عامل إيجابي في تحقيق الأهداف والمبادئ الوطنية والقومية والإنسانية.. ولكن المرحلة الدولية، تمخضت عن مواقف وسياسات للدول الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، تفتقر إلى المبدئية، وتحول العلاقات الدولية إلى شبكة تآمر وعمل عصابات وغابات ومتاهات.

فالنصر الذي حققته تجربة الحزب الثورية، بعد ثماني سنوات من الحرب مع إيران، والنصر المعنوي الخالد الذي تحقق في (أم المعارك)، كان ثمرة لهذا النهج في التعامل مع الحياة الداخلية للوطن وللأمة، ومع العلاقات الخارجية مع الأمم الأخرى.

لقد حملت بداية الثمانينات رياح أزمات سياسية واقتصادية حادة، انعكست بدرجات مختلفة على جميع بلدان العالم، وكان مقرراً لهذه الأزمات ان تنتهي إلى نكسات مفجعة، والى تهديد مصير حركة عدم الانحياز تهديداً مباشراً، لولا الثمن الذي دفعته التجارب الأصيلة ذات الجذور الحية والرسالة التاريخية في دفع تلك الأخطار المهددة، وفي الكشف عن الوجه القبيح للعلاقات والصفقات الإمبريالية الصهيونية الشعوبية، فحافظت بذلك على التوازن في مسيرة المجتمع الدولي، وفي مقدمة تلك التجارب الأصيلة، كانت تجربة البعث في العراق، وتجربة النضال الفلسطيني.. فالعرب لعبوا دوراً هاماً - بالقياس التاريخي- في هذه المرحلة من تطور العلاقات الدولية في العالم، من خلال هاتين التجربتين النضاليتين الأصيلتين، اللتين عبرتا عن روح النهضة الحضارية للأمة. وكشفتا الهوية المعادية للحضارة لدى

الأعداء.. كما فضحتا التزوير ووضعتا حدا للعبث بالقيم الحضارية، وكانت الفضيحة الكبرى عندما رفض منطق العدوان الغاشم، كل ربط بين القضايا الدولية، وشن الغرب عدوانه الثلاثيني، ومارس الازدواجية بأشنع صورها.

إن تراجع الصراع الأيديولوجي، وتطور العلاقات الدولية باتجاه هيمنة القطب الواحد، بطرح من جديد السؤال عن الدور الذي ترتبه المرحلة الراهنة على دول العالم الثالث وعلى نضال شعوبها، وعلى حركة عدم الانحياز.

بيد أن فعالية هذا الدور، وخروج حركة عدم الانحياز عن كونها إطاراً مختبراً تنعكس عليه تناقضات العالم المعاصر، وتناقضات مائة ودولتين من أعضائها، تتوقف على الروح الجديدة التي تساعدها على الانطلاق من جديد، محتفظة بروح البداية. ومثل هذه الروح لا تتوفر إلا من خلال حدث تاريخي يحظى بثقة العدد الأكبر، ويشعرهم بان مستوى جديداً يتهيأ لقيادة تاريخية جديدة لهذه الحركة.. وقد تحقق ذلك من خلال الموقف التاريخي الحاسم للعراق، في وجه العدوان الثلاثيين الذي استهل به نظام الهيمنة الأمريكي الجديد «حواره الجديد» مع العالم.

إن طبيعة النظام الرأسمالي لا يمكن ان تتغير تغيراً جوهرياً، وهو الذي مارس طيلة مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، سياسة القوة مع الاتحاد السوفيتي. وان المحافظة على مستوى اقتصادي معيَّن وسياسي تأثيري في العالم، أصبحت بحكم ظروف تطور الولايات المتحدة الأمريكية، لا تتحقق إلا بامتداد تحكمي خارج الحدود، ولذلك سوف يندفع النظام الرأسمالي في هذه السياسة، بعد زوال الاتحاد السوفيتي، اندفاعاً اكبر للهرب من أزماته الداخلية، وعندئذ سوف تنشأ، لا محالة، ردود فعل وتكتلات داخل الأنظمة الرأسمالية، سواءٌ في المركز أم المحيط، وعندئذ سوف تحصد هذه السياسة نتائجها الحتمية، في انهيار الصيغة الأمريكية المفروضة باسم النظام الدولي الجديد).

لقد بدأ الحزب بواحد، في خط البداية، هو مؤسس الحزب، رحمه الله، ثم أصبح على ما هو عليه الآن..
وفي كل أقطار الوطن العربي، ليس بإمكاننا ان نقول: اننا نبدأ بواحد، وإنما نبدأ بعدد من الرفاق.

وكما قلنا في اكثر من مناسبة.. ان قوة الحزب لا تكمن في عدد أعضائه.. وقد شرحنا هذا في آخر لقاء كان لنا مع رفاقنا في قطر اليمن.. وأوضحنا لهم ان عدد أعضاء فرع حزبكم في قطر العراق كان عام ١٩٦٣ بحدود ٧٧٨ عضواً، وقام بثورة ضد دكتاتورية وشعوبية بغيضة.. وكانت الثورة ناجحة.

وعندما نستعرض خط البداية، مع صورة الحزب، فان بعض المداخلات كاد يبدو، في القياس التقليدي، ارجح من قدرة الحزب، ولكن الحزب، بروحه الثورية المؤمنة، استطاع ان يزيح عن الطريق كل الصور التي كانت تتداخل مع الخط الأصيل للحزب، ليبقى الحزب على ما هو عليه، وعلى الصورة التي يؤمن بها المناضلون البعثيون في كل أجزاء الوطن العربي الكبير.

كلمة السيد الرئيس القائد

في الجلسة الختامية للمؤتمر القومي الثاني عشر للحزب

استراتيجية العمل القومي

أولاً: مراحل نظرية العمل القومي:

مرت نظرية العمل القومي في حزبنا بثلاث مراحل:

١ – مرحلة ما قبل وصول الحزب إلى استلام السلطة في قطر من أقطار الأمة.

وفي هذه المرحلة كانت النظرة إلى العمل القومي ذات طابع أيديولوجي راجح، فالعمل القومي كان تعبيراً عن إشعاع فكرة الحزب. وكان منصباً على تحقيق الشروط الملائمة لمزيد من الإشعاع لأهدافه القومية. وكان الوصول إلى السلطة بعيداً ومستبعداً، لأن تصور الحزب لتحقيق أهدافه كان قائماً على أساس بناء الدولة العربية الواحدة ذات المجتمع الديمقراطي الاشتراكي الموحد.. دون تصور تفصيلي لمراحل هذه المسيرة. فالمسافة بين الحزب وبين السلطة، حسب هذا التصور الأيديولوجي الستراتيجي، كانت بعيدة جدا. وكانت النظرة إلى السلطة، بحد ذاتها، نظرة سلبية متأثرة برد الفعل على الممارسات السلطوية في الواقع القومي الراهن، فكانت مواقف الحزب، نتيجة لذلك، مطبوعة بطابع المعارضة الدائمة، الأمر الذي جعل نضال الحزب يميل إلى الطابع الثوري المستند إلى الطموح الثوري اكثر من استناده إلى التعامل مع الممكنات الظرفية والجزئية للواقع وللأحداث اليومية في العمل السياسي.

كانت هذه المرحلة طبيعة جداً في خدمة أهداف الطموح، وضرورية جداً أيضاً ليحافظ الحزب على ثوريته ومبدئيته ونقاء مناضليه وبقائهم بعيدين عن مصائد «المغفلين» الذين تصطادهم المختبرات المشبوهة الجاهزة، عندما يظهرون في سوق المساومة السياسية بقصد الوصول السريع إلى السلطة. فالحزب، في نشأته الأولى، كان حريصاً على المحافظة على نفسه من غزو القيم السائدة في العمل السياسي داخل واقع عربي، تترسب فيه كل تناقضات مرحلة الانحطاط الطويلة التي مرت بها الأمة.. وكان الأساس هو ان يزرع في قالب هذا الواقع بذرة الانبعاث التاريخي.

وبفضل هذه البداية، التي حافظت على نوعيتها، استطاع الحزب ان يضمن سلامة تطوره وان ينتصر على عوامل سلبية حاولت ان تشوه مسيرته، وان تهبط من مستوى العمل التاريخي إلى مستوى السياسات المخربة للثورات والمزيفة للمبادئ، فبقي التصميم الأول لذي أطلقت منه الحركة التاريخية للحزب مصوناً، بالرغم من المؤامرات التي تحققت من داخله ومن خارجه.

فالبعث يحمل رسالة، وسياسته هي العمل الثوري طويل الأمد لتحقيق هذه الرسالة، وبعث الأمة لا يتحقق إلا إذا كان «التنظيم البعثي» على صورة فكرته، وكان «الإيمان البعثي» هو المحرك والموجه للسلوك البعثي.

وكان نضال البعثيين تجسيداً لإرادة الأمة في الانبعاث وصوناً لمصيرها ولمعاناة جماهيرها. فالمناخ الذي سيطر على المرحلة التي سبقت الوصول إلى السلطة كان مناخ النضال الذي يستند إلى روح جديدة لم تعرفها الأحزاب السياسية على اختلاف اتجاهاتها..

كانت «الرومانسية الثورية» غالبة على هذه المرحلة، وكان التفكير بالأمة ككل موحد هو المنطلق، فكان «العام» يحتل مساحة التفكير، وكان «الخاص» مرشحاً لأن يتجاوز نفسه بقوة انبعاثية، قبل ان تكتمل الشروط اللازمة لتحقيق هذا التجاوز موضوعياً. وكانت فكرة المراحل غائمة.. إذا لم تكن غائبة، فالقومي هو الوطني الصحيح، والوطني القطري مرشح دوماً للانحراف، ديمقراطياً كان أم اشتراكياً، والتفكير بالمراحل نزعة إصلاحية مقصرة عن الثورية.. وربما كانت تجربة وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر، وحل الحزب وبناء التصور الوحدوي بالاستناد إلى المبادئ والحلم التاريخي والتيار الجماهيري الجارف.. ودخول مجال التطبيق للمبادئ من باب الإخلاص المطلق لها، والصدق مع النفس، والبراءة

الأخلاقية، والتعامل الوجداني مع الجماهير، ومع اللحظة التاريخية.. كل ذلك يلخص الموقف الذي طبع تلك المرحلة.

فالعمل القومي الوحدوي التحرري الديمقراطي الاشتراكي هو موقف مبدئي من الواقع، ينطوي على ثورة كلية، وعلى مستوى من الالتزام النضالي والخلقي كفيل بأن يشق طريقه في قلب الواقع، وان يلامس ضمير الشعب، وان يفجر طاقاته التاريخية.

وقد بقي هذا المنظور المبدئي في الحياة السياسية والعمل القومي يميز البعث عن باقي الحركات السياسية تمييزاً نوعاً، لأنه ينطوي على روح جديدة وعقلية جديدة، ومناقبية جديدة في التعامل مع القضايا ومع القوى الأخرى.

ولم يكن الحزب يضيق برومانسية هذه المرحلة، لأنها، وان بدت مثالية أحياناً، وبعيدة عن الواقعية، وعن الرؤية العملية للواقع، كما يمليها التحليل المباشر للأوضاع القطرية وللصعوبات والتحديات، وكانت تبدو متفائلة دوما بالرغم من النكسات المحيطة، وتحلق دوما في سماء من الإيمان الثوري المطلق والنزعة الوجدانية المثالية.. بالرغم من ذلك كله فأن الحزب كان يجد في هذا النهج أماناً له من دوامة العمل السياسي التقليدي، أو العمل السياسي الثوري المغامر، أو النزعات والدوافع القطرية التي تعبر عن عقلية التجزئة وعن نفسيتها.. وكان الحزب يجد في نظرته الوحدوية الشاملة حصنا لتنظيمه القومي وركيزة ثورية لمنطقه وسلوكه السياسي.

وكان للصعود العام لحركة النضال العربي في الخمسينات، واستعداد الأمة لمواجهة نكسات العمل القومي في الستينات، دور في محافظة الحزب على هذا المنظور العام للعمل القومي، والتمسك بمنهجه القومي الوحدوي الذي انطلق منه.

ولم يكن ضغط الأحداث وتلاحقها، بعد فشل تجربة الوحدة ونجاح مؤامرة الانفصال في القضاء على الوحدة، يعطي فرصة كافية للتأمل والتحليل لتلك التجربة ولانتزاع كل دروسها وتوظيفها في إغناء نظرية العمل القومي وتطويرها، وبالرغم من ان المؤتمر القومي الخامس، في أيار ١٩٦٢، قد تبنى شعار «تجديد الوحدة» الذي طرحه القائد المؤسس بعد الانفصال، ودعا إلى تجاوز أخطاء تطبيق وحدة ١٩٥٨، إلا أنه بقي للزمن دوره في ترك الأمور تأخذ حظها من التجربة والخطأ، والمحاولات الاختبارية التي أظهرت الحزب بمظهر الحركة التاريخية التي تعيش أزمة تطور داخلية، دون ان تملك الشروط اللازمة لمعالجتها معالجة مطمئنة.

وفي ظل هذه الظروف كان انتقال الحزب، من المعارضة الدائمة للسلطة، ومن المشتركة الجزئية في الحكم في القطر السوري، إلى قمة السلطة عام ١٩٦٣ في كل من العراق وسورية.. ولم يكن الوصول إلى القمة مستنداً إلى قاعدة هرمية عضوية متماسكة، بل كان من نتاج ظروف تسارعت ووضعت الحزب، دون تهيئة كافية، في قمة السلطة.

وفي حين كان الوصول إلى السلطة في العراق نتيجة ثورة شعبية، لم تتوفر لها القيادة الناضجة، ولا الظروف القومية المتوازنة، فإن الوصول إليها في سوريا جاء عن طريق انقلاب، وصيغ تنظيمية، كان للتكتيك العسكري الطائفي الذي تآمر، فيما بعد عام ١٩٦٦، دور المبادرة فيها، والعمل خلف واجهات متعددة ومختلفة.

٢ – مرحلة الوصول إلى السلطة:

كان لابد لنظرية العمل القومي، بعد وصول الحزب إلى السلطة ان تدخل في طور جديد، وان تتأثر أولاً بالمناخ العام الذي ساد أوضاع الأمة بعد مؤامرة الانفصال، ولا سيما في القطر السوري الذي تركزت المؤامرة على تعطيل دوره القومي، فقد أصبحت الفكرة القومية متهمة، ونشأ داخل الحزب تيار قطري، وتراجع المد القومي، وتراجعت النظرة الشمولية القومية، وتراجع الموقف الثوري المبدئي. ومع تراجع المد القومي برزت ظواهر القطريات، ومعها العصبيات الضيقة وكل ما كان خافياً ومترسباً من المراحل السلبية، وأخذت صورة الواقع شكل تناقضات، بدلاً من شكل مد صاعد لتجاوزها، وطرحت الخصوصيات كبديل للعام، والأجزاء قبل الكل الذي تنتمي إليه.

وهبطت الأحلام، وسادت موجات ردود الفعل، وأصبح التاكتيك الظرفي هو القانون الذي يسود المرحلة، وتراجع الأفق المبدئي، واصبح الطرح الستراتيجي غطاء لمحاربة النظرة المبدئية من جهة، وتنظيف النزعة العملية (البرجماتية) من جهة ثانية.. وقد برزت هذه الحالة في

الحوارات التي انتهت إلى الميثاق الثلاثي، بين مصر وسوريا والعراق في ١٧ نيسان ١٩٦٣، وكانت سبباً في تعطيله.

وإلى جانب هذا المناخ العام الذي تأثرت به نظرية العمل القومي، كان هناك المناخ الخاص بالحزب. وبمفهوم الحزب، فقد شهدت هذه المرحلة فكرة الاستئثار بالسلطة، وإهمال العمل القيادي الحزبي، والنظر إلى الحزب على انه أداة للسلطة، وأصبحت السلطة، أحياناً، متهمة للحزب، تزاود على فكرته، وتتطاول على تاريخه، وتمسح ثوريته، وتتجنى على ماضيه، وتحول شعاراته إلى كلمات لا مضمون لها، والسياسة إلى التسلط على الحزب وعلى الجماهير، وتحول الطليعة الثورية إلى نخبة أو طغمة حاكمة وتستعين بمن هو خارج الحزب، لصياغة مفاهيم جديدة لفكر الحزب.. وضمن هذا المناخ انعقد المؤتمر القومي السادس، وصيغت منطلقاته النظرية، كما لو أنها بديل لفكر الحزب.

وفي هذه المرحلة التي انتهت بنكستين للتجربتين، في كل من سورية والعراق، تعرضت نظرية العمل القومي إلى امتحان خطير، فهي، من جهة، كانت تحتاج إلى استيعاب حي لمعطيات المرحلة الجديدة، لمعالجة آثار النكسة، وإلى ان تتقدم إلى مستوى جديد من الوعي، بالرغم من تراجع الواقع القومي ونكسته، وهي، من جهة أخرى، وجدت نفسها أمام جو مصطنع ومزيف، لا تطرح فيه القضايا الفكرية والتنظيمية والستراتيجية طرحاً جدياً نزيهاً، وهدفاً إلى إعادة بناء نظرية العمل القومي على أسس تسمح للحزب بأن يتابع رسالته التاريخية، وسط تحديات ضخمة ومؤامرات مصيرية على الأمة.

بل ان الطروحات التي ظهرت خلال هذه المرحلة كانت تدفع، من طرف آخر، إلى التمسك بالصيغ المبدئية النظرية، والطروحات التي رافقت مرحلة ما قبل الوصول إلى السلطة. وكان ذلك واضحاً في المؤتمر القومي الثامن عام ١٩٦٥.. لذلك لم يتحقق تطور طبيعي لنظرية العمل القومي في هذه المرحلة، لا في مجال العلاقة بين العام القومي وبين الخصوصيات القطرية، ولا في مجال العلاقة بين الحزب والسلطة، أو السلطة والعمل الجماهيري، ولا في العلاقة بين الأقطار على المستويين الشعبي والرسمي، ولا في مجال العلاقة بين النظرية والتطبيق.

٣- مرحلة التجربة الثورية الناضجة:

كانت دروس العمل القومي وتجاربه الطويلة قد نضجت لبدء مرحلة جديدة، عندما جدد الحزب ثقته بنفسه وثقة الأمة به، بتفجير ثورة جديدة بمستوى جديد، في ١٧- ٣٠ تموز ١٩٦٨ في العراق، ولم يكن النضج الموضوعي الذي جاء محصلة لتراكم خبرات النضال القومي يكفي وحده لمواجهة تحديات المرحلة الجديدة.. فقد تحقق للأمة وللحزب نضج ذاتي، عبر عن نفسه من خلال مستوى قيادي جديد، تصاعد وتكامل عبر المواجهات والمعاناة والملاحم والانتصارات، فكان الدور التاريخي للرفيق القائد صدام حسين، وكان تطور نظرية العمل القومي من خلال الممارسة الرائعة لهذا الدور.

إن التكامل بين عناصر أساسية لابد منها لتحقيق تطور جدي في نظرية العمل القومي قد توفرت شروطه في ظل هذه المرحلة..

فالفكر النظري، والفكر الستراتيجي، والممارسة العملية القيادية، والامتحان التاريخي لهذه القيادة، خلال الحرب، والنجاح المتألق في اخطر مواجهة مصيرية تعرضت لها الأمة في ثمانينات هذا القرن.. كلها كانت عناصر متكاملة في شخصية مبدئية نضالية سياسية فريدة في تاريخ الأمة المعاصر، هي شخصية الحزب في العراق وشخصية قائد هذا الحزب ورائد تجربته الثورية.

وقد شهدت هذه المرحلة صفحة ناصعة من صفحات تطور الحزب، قوامها التكامل الرائع بين شخصيتين قياديتين تاريخيتين في حياة الحزب والامة، هما الرفيق القائد المؤسس ميشيل عفلق الذي افتقدناه، والرفيق القائد صدام حسين (حفظه الله). فقد توفر لهذا التكامل الرائع،بالإضافة إلى الدروس الغنية والعميقة التي تفتقت عنها تجربة حرب ثماني سنوات، وبعدها أم المعارك، الشروط المثالية لإنضاج نظرية اعمق في العمل القومي، تأخذ بعين الاعتبار، تطور ظروف النضال القومي وظروف النضال في العالم، وطبيعة المرحلة التي تمر بها الأمة، وما حققته تجربة الحزب، في انتصارها التاريخي على المؤامرة المصيرية التي استهدفت هوية الأمة، وقوميتها ونهضتها، من فرص جديدة للعمل القومي، وما فتحته من آفاق لاستعادة المبادرة القومية، والتقدم على طريق

الوحدة وإنجاز مهمات المرحلة الوحدوية الديمقراطية.

إن أهم ملامح هذه النظرية الجديدة للعمل القومي، تتلخص فيا يلي:

أ. ضبط المعادلة بين الفكر النظري والفكر التطبيقي، فلم يعد الفكر النظري فكراً مبدئياً عقائدياً يتطلع إلى العمل، بل هو فكر عامل. ولم يعد الفكر التطبيقي فكراً تجريبياً، يتعامل مع التجربة، بدون أفق نظري مبدئي، بل هو فكر متحد مع الممارسة المتحدة بالفكر.

ب. تحقيق الوحدة والتكامل بين الفكر العقائدي والستراتيجي والتعبوي، فمنهج الفكر القومي أصبح منهجاً فكرياً ثورياً علمياً تطبيقياً منفتحاً متجدداً، ومتفاعلاً مع واقع الأقطار، وواقع الأمة، وواقع العالم.

ج. الربط المعنوي بين النظرة القومية الشاملة، وبين خصوصيات الأقطار، وتحقيق التكامل بينهما عبر التفاعل الديمقراطي، والتخطيط الموحد لمواجهة التحديات الوطنية والقومية، وارادة النضال من اجل توحيد الأجزاء ومغالبة عقلية التجزئة ومصالحها، والاعتماد المتصاعد على حركة الجماهير.

د. الأخذ بعين الاعتبار، مراحل العمل القومي ومتطلبات تهيئة عوامل تكاملها وصمودها، وإنجاز مهماتها على الصعيدين لوطني والقومي.

هـ. بناء قاعدة انطلاق مشتركة بين الأنظمة العربية الوطنية، تحقق الحد الأدنى من متطلبات العمل القومي، وتطويرها باتجاه اختصار المسافة تدريجياً بين الأوضاع القطرية والأهداف القومية.

و. العمل على خلق مناخ صالح للقاء الجدي والحوار الديمقراطي، بين القوى القومية، لإنضاج صيغة عمل مستقبلي، يحقق التكامل والوحدة في ستراتيجية النضال العربي، وتطوير صيغ العمل الثوري، وتخليصها من عقلية المعارضة السلبية التي تفتقر إلى الحس الواقعي، والى المنطق العلمي، والى نضج المفاهيم الوطنية والقومية، وخلق حالة حوار نقدي جدي بين الأنظمة والجماهير، وتطوير هذا الحوار باتجاه تقليص المسافة بين البعدين الرسمي والشعبي للعمل القومي.

ز. اعتبار الوحدة والديمقراطية عنواناً يجسد طبيعة المرحلة القومية، وحاجاتها الأساسية، والعمل وفق هذا التصور الستراتيجي، لخلق حالة عربية نهضوية جهادية جديدة، تستلهم روح الصمود والنصر الذي حققته تجربة الحزب في العراق.

(ثانياً): المرحلة القومية الراهنة:

١- ان التقاط «رسالة الجهاد» الموجهة من «أم المعارك» إلى الأمة، هو الشيء الجوهري، الذي تتكشف عنه أحداث المرحلة، وهو ما ينبغي أن يدخل في وعي الأجيال العربية، وان يتعمق، لكي يكون عاملاً مساعداً على إنجاز المهام النضالية لهذه المرحلة.

٢- ان التوصل إلى قراءة عربية لأحداث المرحلة الراهنة، وسط الطوفان الإعلامي الأمريكي - الصهيوني المضلل، لا يمكن ان يتحقق بعقل سياسي تقليدي، ولا بمنهج أكاديمي نظري. فالمرحلة الجديدة، التي دخل فيها العرب مع دخولهم أم المعارك، لا يمكن استيعابها بعمق، من دون معايشة داخلية لجوهر ولأحداث أم المعارك- باعتبارها منازلة تاريخية مصيرية، وموقفاً مبدئياً تاريخياً.

فالعقل السياسي التقليدي، كان يتمحور دوماً حول قطبين:

أ- أحدهما «دولي» وهو المحور السائد، يبالغ في الحسابات الدولية، إلى الدرجة التي تكاد تلغي الدور الوطني المستقل، والطموح السياسي.

ب- والقطب الثاني، «محلي» يتمركز حول الواقع القطري، إلى الدرجة التي تغيب معها صورة العالم وعلاقاته الدولية، ويتم التجاهل لطبيعة المرحلة التي تمر بها الأمة.

وفي الحالين، يعجز الفكر السياسي التقليدي عن فهم حقيقة أم المعارك، لأنه ينطلق من تجاهل لحقيقة العراق المجاهد والامة، والأحداث الكبرى لهذه المرحلة، ما دامت الحكمة السياسية لديه تتمثل في مواقف الخنوع والاستسلام.

فالقراءة العميقة لام لمعارك وللمرحلة القومية التي ولدت عنها- القراءة العربية- تحتاج، أولاً، للإيمان بالأمة وتراثها، ودورها الحضاري وفهم حقيقة العراق وشخصيته التاريخية الممتدة على عمر الحضارة الإنسانية. كما لأنها تحتاج إلى منهج علمي، وعقل ثوري، واحساس بالرسالة وروح الشعب، فضلا عن المعايشة الداخلية الصميمية للأحداث..

لذلك كان حزبنا هو المؤهل والمطالب بتقديم هذه القراءة المبدئية التي تساعد الأجيال العربية على اكتشاف الجوهر الوطني والقومي الجهادي لام المعارك، وكذلك الطبيعة الجهادية للمرحلة القومية الراهنة.

٣- لقد كانت كتابات وأحاديث الرفيق القائد صدام حسين، منذ بدء المنازلة، وبخاصة خطابه في مؤتمر الجهاد والبناء (المؤتمر القطري العاشر) بتاريخ ١٢- ١٣/٩/١٩٩١ - القراءة الأولى، المعبِّرة عن روية شاملة، لأحداث المرحلة. لذلك فان تتبع هذه الأحاديث والكتابات، وربطها بإيقاع ظروفها ومعاناتها، يشكل دليلاً لقراءة عربية أصيلة، تضع الأحداث ضمن سياقها التاريخي، وتكشف عن آفاق المرحلة وتحدد مهماتها الأساسية.

٤- ان امتنا العربية، تتقدم نحو تحقيق أهدافها القومية الانبعاثية، بالرغم من التحديات المصيرية، التي تواجهها، وبالرغم من مشاق الطريق والام التجارب.. فهي تسير في طريق صاعدة، مهما تعثرت مسالكها، وقدرها يضعها في المرحلة التاريخية العالمية الراهنة، أمام مهمات وطنية وقومية وإنسانية طليعة، في جميع أقطارها. وقد توافرت للعراق الشروط المتكاملة لدور قيادي، من اجل تحقيق المهمات الوطنية والقومية والإنسانية لهذه المرحلة. لذلك وقع على هذا القطر المجاهد العبء الأكبر في مواجهة تحديات المرحلة، وكانت أم المعارك ذروة المواجهة بين الحركة الصاعدة للأمة، وبين المخططات المعادية للنهوض القومي. وهي ثمرة لهذا التطور الصاعد في مستويات المواجهة للتحديات الوطنية والقومية، منذ بدء النهضة العربية المعاصرة حتى الآن.

إن «أم المعارك» كامنة في صيحات القادة المفكرين، الداعين لنهضة العرب منذ القرن الماضي، كما ان روحها بقيت مصاحبة لتلك السلسلة التي لم تتوقف، ولم تنقطع من الانتفاضات والثورات الوطنية والقومية، والمواجهات النضالية المتلاحقة، منذ الصحوات الأولى للعروبة والإسلام في هذا العصر. وهي، في المرحلة التاريخية الراهنة، امتداد صاعد، للثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، وثورات فلسطين، والمغرب العربي، وهي التلبية العملية لنداء «عهد البطولة» الذي انطلقت منه فكرة البعث، وهي التحقيق الأصيل لمعنى نشوء البعث، والتجديد الحي لروح ولذكر ى ثورات عبد الناصر، والجزائر، والعراق، وهي انتصار للوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، وتكريم لانطلاقة الثورة الفلسطينية، عام ١٩٦٥، واحياء لذكرى العبور عام ١٩٧٣، وتعزيز لروح الانتفاضة المباركة عام ١٩٨٧، في فلسطين.. وهي تواصل مع الروح الجهادية، التي تألقت في تحرير الفاو ١٩٨٨ . وتجاوب صميمي مع حركة الجماهير الشعبية الوحدوية التي حققت وحدة اليمن عام ١٩٩٠.

فهي إذن، تتويج لمراحل النضال العربي، وهي نافذة كبيرة ومضيئة على المستقبل.

- إن وضع «أم المعارك» ضمن إطارها التاريخي النضالي هذا، يكشف عن طبيعة المرحلة القومية الراهنة، من حيث انها مرحلة جهادية، تتطلب مستوى جديداً في مواجهة التحديات القومية. فالامة العربية، مطالبة بأن تحشد فيها كل الطاقات النضالية المتحققة والكامنة، وان تستلهم المعاني النضالية الجهادية للمعارك والانتصارات السابقة، لكي تنطلق انطلاقة جديدة، تستمد روحيتها ومنهجها من «أم المعارك»، غير هيابة لهذا الحشد العدواني المصمم على التآمر، للحيلولة دونها ودون فرصتها التاريخية، في ظل قيادة البعث، والدور التاريخي للرفيق القائد صدام حسين.

فالموقف الدفاعي المبدئي، الذي جسد روح الصمود في الأمة، يجد سنده، اليوم، في تلك الشعلة المضيئة التي أعلنتها أم المعارك فوق ظلام الأوضاع العربية، والتي وصل نورها إلى الجماهير العربية، وإلى الأجيال الشابة في الوطن العربي، لكي تتقدم، بوحدة نضالها، نحو ترصين الوحدة الوطنية في كل قطر، ولخلق مناخ شعبي مبشر بالوحدة، ولرفع حواجز التخلف، وتحرير العقل العربي،

والنفس العربية، والأرض العربية من كل أنواع الهيمنة والتسلط والقمع، والتحكم في الثروات المادية والروحية للأمة، على امتداد وطنها الكبير.. انها صحوة العقل والضمير، صحوة الجهاد والبناء، صحوة العروبة والإسلام، التي تفتتح مرحلة عليا في النضال القومي، بعد ان حسمت المنازلة بين جزء من الأمة، هو العراق، وبين كل ما يملك الأعداء الدوليون والمحليون من قوى وأموال ووسائل حديثة، لصالح النهضة العربية.

فالجزء الذي تحول إلى كل، قد رسم الطريق للأجزاء الأخرى لكي تنهض، واصبح منارة لشعوب العالم الثالث، ولأمم هذا العصر.

٦- إن المرحلة القومية الجديدة، تواجه وضعاً عربياً رسمياً، سهّل للقوى المعتدية، تنفيذ مخططاتها، وإضفاء مظهر خادع من الشرعية- مهما كان زائفاً- عليها. فالأنظمة الضالعة والمشاركة في العدوان قدمت صورة ممسوخة عن الأمة.. وكان يمكن لهذا الوضع العربي، الذي باتت تستفحل فيه تناقضات التجزئة وظواهر التخلف والتبعية العمياء، ان لا يسفر عن كل أمراضه، وفساد أنظمته، لو كانت تلك الأنظمة تقيم احتمالاً، مهما كان ضئيلاً، لصمود العراق في وجه هذه الصليبية الجديدة.

فالمرحلة العربية الجديدة، تنطلق، إذن، من وضوح كامل ومن كشف تام لصورة الوضع العربي، والذي بلغ فيه التناقض بين واقع الأمة، الذي دجنته القوى الاستعمارية وبين حقيقتها الناهضة، حدا يفرض عليها ان تكون مرحلة تأسيسية جديدة للنضال القومي.. ولا سيما ان الجماهير العربية التي استجابت لنداء أم المعارك، ضمن حدود إمكاناتها الظرفية، لانها كانت مغلوبة على أمرها، قد عبرت عن تطلعها الدائم إلى النضال.. بل حتى الأنظمة التي اعلنت، منذ بدء المنازلة الكبرى، موقفاً مؤيداً للعراق، قد عبرت عن استعداد إيجابي في مواجهة الموقف الخياني للأنظمة الأخرى، وان كل موقفها لم يرتق إلى مستوى التعبير الجماهيري.

٧- لقد كانت «أم المعارك» مناسبة للكشف عن الدور التآمري الخاص للولايات المتحدة.. فانهيار الاتحاد السوفياتي، الذي لعبت فيه المخططات الأمريكية- الصهيونية، دوراً فاعلاً، قد أخلى لها الجو، لكي تمد هيمنتها على العالم، ولكي تعيد الوطن العربي إلى أحضان المرحلة الاستعمارية القديمة.

وقد أسهمت كتابات أمريكية، بعد وقف إطلاق النار في أم المعارك، في الكشف عن المخططات الصهيونية القديمة لجر السياسة الأمريكية خارج حدود قارتها، ولتوريطها في الحروب العالمية، لكي تلعب دوراً عالمياً وإقليمياً يخدم أحلام الصهيونية، في التوسع والهيمنة على الوطن العربي.

وقد انكشفت ملامح هذا الدور الأمريكي منذ احتلال فلسطين، وقيام الكيان الصهيوني، وانكشف، بوضوح اكبر، بعد ان اصبح النضال العربي يركز على عروبة النفط العربي، سواء في منتصف الخمسينات، أثناء العدوان الثلاثي على مصر، أم في منتصف السبعينات، بعد حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣. فتلويح العرب بالشعارات المعبرة عن حاجاتهم إلى امتلاك ثروتهم النفطية، والمطالبة بتوظيف هذه الثروة توظيفاً سياسياً واقتصادياً واجتماعاً لمصلحة نهضة الأمة. قد اغضب الأنظمة الاستعمارية الأوربية القديمة، والإمبريالية الأمريكية الحديثة، واثار الرعب لدى الصهيونية العالمية، وفي داخل الكيان الصهيوني.. فكان «مبدأ الفراغ» الذي طرحه (ايزنهاور) عام ١٩٥٧، بعد فشل العدوان الثلاثي على ثورة عبد الناصر، ثم كان مبدأ (كارتر) للتدخل في منطقة الخليج عام ١٩٧٦ وأخيراً المخطط العدواني الصهيوني الذي قاده (بوش) رداً على النصر المؤزر لذي حققه العراق في الحرب العراقية الإيرانية.. كانت كلها حلقات في سلسلة كاشفة للدور الأمريكي الذي سقطت براقعه كلها في أم المعارك..

فالمرحلة العربية الراهنة، تواجه وضعاً دولياً، وتركيزاً أمريكيا وصهيونياً لتصفية قضايا النضال العربي، لم يكن يوماً ما بهذا الوضوح وبهذه الشراسة والاستهتار بكل قيم التعامل الدولي الحضاري، وبحقوق الشعوب والانسان وبالشرعية الدولية.. وهذا الوضوح في صورة الوضع الدولي، يشكل بدوره عاملا دافعاً ومساعداً على بناء استراتيجية نضالية، ذات مهام واضحة أمام الجماهير العربية وأمام طلائعها النضالية وأجيالها الجديدة، وكذلك

أمام طلائع شعوب العالم وفي العالم الثالث خاصة، ولدى الفئات والعناصر المتحررة من الضغوط والمصالح والتأثيرات المباشرة، الأمريكية والصهيونية، في البلدان الأوربية، وبخاصة في التجارب الجديدة، التي حلت محل الاتحاد السوفياتي القديم، وفي التجارب الاشتراكية القائمة.

٨- إن المرحلة القومية الجديدة، هي مرحلة تكتل وطني وقومي وعالمي إنساني، لمواجهة أخطار مشتركة على المصالح الوطنية والقومية، ولمواجهة تهديد مستمر ومتصاعد لمصير الحريات في العالم، ولاستقلالية الموقف السياسي النابع من التقدير الوطني والقومي والإنساني لمصلحة الأوطان والأمم، لمواجهة التخريب المقصود لعمليات التنمية، والإغراق في الديون وفوائدها، وشل القطاع العام الاقتصادي والحيلولة دونه ودون تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية، وافساد العملية الديمقراطية والتهديد المستمر للأمن الوطني. فصورة المهمات النضالية والسياسية للمرحلة الجديدة هي، بدورها، واضحة جلية، على الأصعدة الوطنية والقومية والإنسانية بوجه عام، لأنها مهمات حضارية شاملة.

ثم ان المادة الأساسية لكل استراتيجية عمل وطني وقومي، ولكل نضال بهذا المستوى، وهي الجماهير، والواقع الجماهيري، هي بدورها، مهيأة للنهوض بأعباء تلك المهمات، بالرغم من كل المعيقات والمحبطات. فهي موقنة بأن الفراغ الذي تتخبط فيه، ناشئ، بالدرجة الأولى، عن غياب الصيغ الوحدوية للنضال التي تدعم النضال الوطني، وتحرك الساحة القومية ككل. وكذلك هو ناشئ عن انحسار الممارسة الديمقراطية، وعن ضمور المضامين الديمقراطية والاجتماعية لحركة النضال العربي.

فقد عبَّرت الجماهير العربية، في التفافها حول الموقف المبدئي الشجاع للعراق في أم المعارك، عن استعداد للدخول في مرحلة جديدة تنفض عنها وعن وحدة النضال العربي الشعبي، ما علق بها من الآثار السلبية للمراحل السابقة.. فقد كان الالتفاف الجماهيري العربي الواسع حول العراق بمثابة استفتاء حقيقي على الخيار القومي الوحدوي المصيري بوجه عام، وتعهد صميمي لمجابهة الأخطار التي تعرض لها حاضر الأمة ومستقبلها، عندما يأخذ ذلك الخيار القومي صورة المعركة الحقيقية المصيرية، التي يتقرر فيها مصير الأمة ككل.

٩- تبقى، إذن، الخطط والوسائل التي ينبغي ان توضع، وان توضح، وان يكون إعدادها بصيغ قومية وديمقراطية، منسجمة مع طبيعة المرحلة الجديدة، ومهماتها الجهادية، ويبقى عبء المبادرة قائماً على كاهل الحزب، فقد جاء صعود الموقف الوطني والقومي لتجربة الحزب في العراق إلى الذروة في «أم المعارك»، وسط واقع عربي هابط ومتراجع، برهاناً على ان البعث يبقى هو الطليعة القيادية التي تحتل الموقع الأمامي المتقدم للنضال العربي. وقد كان هذا الموقف المبدئي التاريخي، الذي حققته ثورة الحزب في العراق، والتضحيات الجبارة التي عززت الرصيد التاريخي لام المعارك لدى الجماهير العملية، بمثابة ترسيخ للدور القيادي للحزب وثورته وقيادته التاريخية المتمثلة في شخص الرفيق القائد صدام حسين، وفي منهجه الجهادي في التعامل مع أحداث المرحلة القومية.

١٠- فإذا كان العمل الجماهيري، على امتداد المرحلة التي جاءت بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ قد ظل دون الحد المطلوب لمواجهة تحديات النضال العربي من جهة، جراء تصاعد القمع وأساليب الترويض التي مارستها الأنظمة العربية بحق الجماهير.. فإن العمل الجماهيري، كان، من جهة أخرى، دون مستوى القدرة على استقبال الظواهر المستقبلية التي كانت تحمل بشائر جديدة.. فظهر العجز الفاضح عن دعم تلك الظواهر الجديدة، بما تستحق من تآزر ومن تفاعل قومي، وبخاصة عندما تعرضت نهضة العراق التي أصبحت ملامحها مجسدة للمشروع القومي النهضوي، للعدوان الشعوبي الإيراني، وكذلك عندما قامت ثورة الحجارة وتحققت الانتفاضة الشعبية داخل فلسطين.. فان هذا التقصير الواضح قد تجلى في جميع المواقف الجماهيرية، وبرز بشكل اكثر حدة في العمل الجماهيري تجاه «أم المعارك»، بالرغم من الظواهر القوية الإيجابية.

إن الموقف الجهادي لام المعارك، قد حرك البركان الجماهيري في الوطن العربي، إلا ان القيادات السياسية التي كان يفترض ان تمثل دور الطليعة في الوطن العربي،

كانت متخلفة عن حركة الجماهير، وعجزت عن التقاط الفرصة التاريخية للنهوض معها، لأنها لم تكن مؤهلة، من حيث وعيها أو ممارستها، لفهم الطبيعة الجهادية لأم المعارك، ولتمثل الأبعاد التاريخية لهذه المواجهة المصيرية. لذلك فان أية استراتيجية للنضال القومي في المرحلة الجديدة، تتطلب، أولاً، إدراكاً موضوعياً للحاجة إلى معالجة هذه الظاهرة القومية بمختلف الوسائل.

١١ - ثم ان هناك خللا آخر، لابد من معالجته، يكمن في بنية العمل القومي، وهو خاص بالحزب، وبصيغة العمل القومي المتبعة في المرحلة السابقة. فقد كان غرق تلك الصيغة في الأساليب البيروقراطية، وضعف الممارسة الديمقراطية في حياتها الداخلية، وغيرها من العوامل المتصلة بعلاقات المنظمات القومية بالمركز القومي، واوضاع القيادة القومية ذاتها.. كان ذلك كله عاملاً في وجود مسافة شاسعة، بين واقع الحزب، وطموحه القومي. وكذلك بين ممارسات الحزب وقدراته. وقد ظهرت تلك المسافة، على نحو واسع، في أم المعارك. لقد فاجأ الموقف الجهادي الذي أقدمت عيه قيادة الحزب في العراق الجميع، بغض النظر عن كل المقدمات السابقة التي مهدت له في عقيدة الحزب ونضاله الطويل.. لذلك فإن المنظمات الحزبية- حتى تلك التي حاولت جاهدة بذل أنشطة ترتقي إلى مستوى الحدث- وجدت نفسها دون القدرة على الارتقاء إلى مستوى الإحساس بالوسائل الأكثر فاعلية، كما أن منظمات حزبية أخرى وجدت نفسها محاطة بالجو السياسي والنفسي العربي العام، وبأوضاع أقطارها، كان لابد ان تتأثر بها.. هذا فضلا عن ان الحالة الجهادية في فروع حزبنا لم تتبلور أسسها الأولية بشكل كاف في منظماتها الحزبية. وبعضها لم تمارسها، على الإطلاق، لظروف موضوعية.. لذلك وجدت تلك المنظمات نفسها تعمل بمستوى متواضع، لا يرقى إلى مستوى طموحها القومي.

لذلك فان المرحلة القومية الجديدة تتطلب بشكل استثنائي، التركيز على تطوير قدرات المنظمات الحزبية القومية على انتهاج الأساليب المبدعة في التواصل الصميمي مع الشعب والالتحام بالجماهير، والحوار مع الاتجاهات الفكرية والسياسية العامة في الحقل الوطني والقومي وتطوير عمل الحزب التنظيمي والجماهيري، وكذلك التركيز على حيوية التثقيف الحزبي، وعلى الحزبية العقائدية، وعلى الاهتمام بتراث الحزب الفكري، واستلهامه في إعادة بناء الوعي القومي في ضوء معطيات المواجهة المصيرية، وتوفير الشروط اللازمة لإغناء هذا التراث، وتطويره وإنقاذه من الوقوع في الجمود الذي أصاب الأيديولوجيات والتجارب المعاصرة.

كما ان المرحلة القومية الجديدة تتطلب بلورة برنامج عمل واضح المعالم، لاقامة جبهة قومية شعبية، لتوحيد نضال الشعب العربي، واطلاق طاقات الجماهير، والعمل، بنفس طويل لتحقيق مستوى جديد من التلاحم الجماهيري حول الحزب، ولخدمة أهداف الأمة.

وفي ضوء ذلك كله.. يمكن تحديد الملامح الرئيسية لاستراتيجية المرحلة القومية.

